العنوان: الجغرافيا وتفسير الظواهر الانسانية في مقدمة ابن خلدون : الظاهرة الدينية انموذجا

المصدر: مجلة الاداب والعلوم الانسانية - كلية الاداب والعلوم الانسانية جامعة ابن طفيل بالقنيطرة - المغرب

المؤلف الرئيسي: استيتو، محمد

المجلد/العدد: ع 9

محكمة: نعم

التاريخ الميلادي: 2009

الصفحات: 169 - 190

رقم MD: 320221

نوع المحتوى: بحوث ومقالات

قواعد المعلومات: AraBase, HumanIndex

مواضيع: التراجم، الجغرافيا، الظواهر الانسانية، الظاهرة الدينية، مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، 732 - 808 هـ، الفلاسفة المسلمون، الفلسفة الاسلامية، الفكر الاسلامي، علم التاريخ، الظواهر التاريخية

رابط: http://search.mandumah.com/Record/320221

الجغرافيا وتفسير الظواهر الإنسانية في "مقدمة ابن خلدون"[*]
(الظاهرة الدينية أنموذجا)

الأستاذ. محمد استيتو
كلية الآداب / وجدة

يُعتبر العلامةَ عبد الرحمان بن خلدون من بين أكبر المفكرين في كل الأزمنة والعصور، وكيف لا وهو الذي يدعي، في الآن نفسه، كل من المؤرخين وعلماء الاجتماع والاقتصاد والفلسفة والسياسة والتربية وغيرهم أنه مؤسس حقلهم المعرفي، أو أنه مجدّد له، أو صاحب نظرية فذة وأصيلة فيه. غير أن ابن خلدون يبقى، في المقام الأول، مؤرِّخا ولوعا بالتاريخ، متيّما به، غيورا عليه، مدافعا عنه وعن أهميته، وصاحب نظريات في تفسير أحداثه ووقائعه، ومنها ميْله إلى الإيمان بحتمية العامل الجغرافي أو بسلطته في التاريخ، لخضوع هذا الأخير في مجمله لتأثير البيئة التي نشأ فيها وتطور.[1] وقد "أغرق" ابن خلدون و "أسرف" في اعتماد العامل الجغرافي في تفسير وقائع التاريخ وأحداثه وظواهره حتى لقد قيل: إنه ليس مؤرخا في **مقدمته**، بل في **تاريخه**.[2]

ومعلوم أن الأوربيين بدأوا، منذ القرن 16م، يأخذون بهذه "**النظرية الخلدونية**" عن واضعها، بشكل مباشر أو غير مباشر، وبنوا عليها، طوال العصر الحديث، مجموعة أخرى من النظريات[3]،

(*) اعتمدنا طبعة المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2001، تحقيق: درويش الجويدي.

(1) عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ**. جزآن، المركز الثقافي العربي، ط. 2، بيروت، 1992، ج. 2، ص. 255. (2: 255).

(2) المكان نفسه.

(3) مثلا: أثنى الفيلسوف والاقتصادي الفرنسي جان بودان (Jean BODIN) (ت. 1596م) في كتابه "**منهجية التاريخ**" (La méthode de l'histoire. Paris, 1941, p. 64.) على نظرية ابن خلدون في شخص الحسن الوزّان (ليون الإفريقي) انطلاقا من وصفه الدقيق لأحوال إفريقيا ومزجه أوصاف الأماكن بأخبار الحوادث، فسمى ذلك: "**جيو-مؤرخ**" (**الجيو-تاريخ**). وفي القرن 19م، وبالضبط في سنة 1866، سمّى عالم الطبيعة، الألماني إرنست هَيكل (1834-1919) (Ernst HAECKEL) العلم الذي يدرس العلاقات بين الأحياء ومحيطاتها بـ"**إكولوجيا**" (Écologie)، وذلك في كتابه: (Histoire de la création des êtres organisés d'après les lois naturelles). وفي فترة 1882-1891، كتب الجغرافي الألماني فردرش رتزل (Friedrich RATZEL) (1844-1904) عن: "**الأنتروبو-جغرافيا**" (Anthropogéographie)، وفي عام 1897 كتب: "**الجغرافية السياسية**" (Géographie politique). وفي هذا السياق كذلك جاءت أعمال الجغرافي الفرنسي فيدال دو لابلانش (Vidal DE LA BLANCHE) (1845-1918)، مؤسس: "**حوليات الجغرافيا**" (1891) (Annales de géographie)، والمدرسة الفرنسية الجغرافية، وكان يرى الجغرافيا من منظور التاريخ انطلاقا من التأثير المتبادل بين الإنسان وبيئته، حيث إن البيئة توفر للإنسان إمكانيات عديدة، ويحقق هو منها ما يريد باختياره. وهكذا... وطبعا فإن "**نظرية الحتمية الجغرافية**" جاءت في هذا السياق.

التي لم يستسغها معظم الدارسين العرب، لذلك انقسموا حول هذه النظرية إلى فريقين: يفاخر أحدهما بـ "الخلدونية"، باعتبارها نظرية علمية نقدية موضوعية، ويفندها الثاني بسبب استغلالها من جانب كتّاب عهد الاستعمار ومنظّريه، لأن هؤلاء الكتاب والمنظرين وجدوا فيها أحكاما كثيرة تبرر سياساتهم وتصرفاتهم[4]، أو بالأحرى سياسات دولهم الاستعمارية وتصرفاتها.

وكيفما كان الحال فإن موضوعنا، هنا، هو محاولة إبراز بعض الظواهر التاريخية، ودور العوامل الجغرافية في حدوثها أو في تفسيرها، من وجهة نظر خلدونية، ولاسيما ما تعلق منها بالظاهرة الدينية وببعض المستويات السياسية المترتبة عنها في تاريخ المغرب الإسلامي على الخصوص، لأن هذه الظاهرة لم يلتفت إليها الباحثون في الفكر الخلدوني كثيرا أو إنهم لم يهتموا بها، بالرغم من أنها تشكل محورا أساسيا في فكر ابن خلدون ونظريته.[5] إنما قبل ذلك لا بأس إن نحن مهّدنا لهذا الأمر بعرض بعض الجوانب التي تضفي على صنعة التاريخ الصبغة العلمية لدى علاّمتنا، والتي عليها يتقعّد التعليل الجغرافي من أساسه، ومنها يستمد "مصداقيته"، وذلك بعد أن تُفحص أخباره وفق منهج علمي مضبوط.

أ – علم التاريخ: الآليات المنهجية الخلدونية

اعتبر ابن خلدون التاريخ فنا من الفنون[6]، وفي ذات الوقت علما[7] أصيلا وعريقا في علوم الحكمة، لأنه يتقعّد على شروط علمية ومعرفية ومنهجية، مثل: النظر والتحقيق، والتعليل الدقيق للكائنات ومباديها، والعلم العميق بكيفيات الوقائع وأسبابها.[8]

وقد حرص ابن خلدون على تأكيد الطابع العلمي للتاريخ من خلال التنبيه على

---

(4) العروي، مرجع سابق (م. س.)، 2: 255.

(5) لقد سبق أن أشار محمد عابد الجابري إلى ما أورده ابن خلدون في "**المقدمة**" عن دور العوامل الطبيعية في نشوء الكائنات وتكوينها، وتأثير العوامل الجغرافية في أنماط العيش والطبائع والأخلاق والسلوك، والفراسة أو البلادة، وأحوال العمران، والصنائع والعلوم، وأحوال الاجتماع المفضي إلى المُلك... انظر: **فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**. ط. 3، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، القسم الثاني: "**العمران البشري وحركة التاريخ – العصبية والدولة**"، ص. 207 وما بعدها.

(6) المقدمة، م. س.، خطبة الكتاب، ص. 9.

(7) انظر مثلا: "**المقدمة في فضل علم التاريخ**"، (المرجع نفسه (م. ن.)، ص. 17)، وأيضا قول ابن خلدون: "وما استكبر القدماء علم التاريخ..."، م. ن.، ص. 34.

(8) م. ن.، خطبة الكتاب، ص. 10.

ما علق به من شوائب، والعمل على تنقيته من أدرانها وشوائبها، وتمييز أخباره عن الحكايات والروايات التي لا أصل لها، وما وقع منها في "المزلات والمغالط"[9]، التي شوهت أمر هذا الحقل، حتى لقد "صار فنُّ التاريخ واهيا مختلطا، وناظرُه مرتبكا، وعُد من مناحي العامة."[10] وقد تسربت تلك المزلات والمغالط إلى كتب التاريخ من أوجه شتى، إما بسبب النقل من دون تحرّ ووعي[11]، أو بسبب ولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المُتعقِّب والمُنتقِد[12]، أو بسبب الوضع من أجل الطعن، أو التشيع لجهة معينة[13]، أو ما إلى ذلك من الأسباب؛ فلذلك إذن، وبحكم أن ابن خلدون مؤرخ واع، مدرك لأصول "صنعته" وضابطُ لها ومدقّقُ ومحقق، فإنه اشترط لهذه "الصنعة" شروطا علمية ومعرفية ومنهجية لا بد منها، إذ "يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السِّيَر والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطةِ بالحاضر من ذلك، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بوْنِ ما بينهما من الخلاف، وتعليلِ المتفق منها والمختلِف، والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها ودواعي كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم، حتى يكون مستوعبا لأسباب كل حادث، واقفا على أصول كل خبر. وحينئذ يَعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحا، وإلا زيّفَه واستغنى عنه."[14] ويقوم المنهج الخلدوني في التحري، عند النقل أو عند التأكد من الأخبار والوقائع وأسبابها، على عدة عناصر، مثل: قياس الغائب منها بالشاهد، والحاضرِ بالذاهب[15]، والمحاكاة[16]، والتعديلِ والتجريح[17]، والمطابقةِ، وهي أهم من التعديل ومقدّمةُ عليه[18].

وقد اهتم ابن خلدون كثيرا بالشكل لإبراز أهمية المضمون العلمي لنظرياته، التي حرص على صياغتها في شكل قوانين أو قواعد أو أحكام، ضمنها مجموعة

(9) م. ن.، "المقدمة في فضل علم التاريخ"، ص. 16 وهنا وهناك.
(10) م. ن.، ص. 34.
(11) م. ن.، ص. 16 وهنا وهناك.
(12) م. ن.، ص. 18.
(13) م. ن.، انظر: صص. 34-27.
(14) م. ن.، ص. 34.
(15) م. ن.، ص. 16.
(16) م. ن.، ص. 35.
(17) م. ن.، ص. 40.
(18) م. ن.، ص. 42.

من عناوين فصول "**المقدمة**"، ثم ألحَقها بتعليل الأسباب وتفسيرها؛ إذ إن معظم تلك العناوين / النظريات، أو القوانين / القواعد / الأحكام، يبتدئ بالآتي: "**في أن...**"[19]، ثم تُلحق غالبا بأشكال التعليل، مثل: "**وسببه...**"[20]، أو "**وذلك أنه...**"[21]، أو "**والسبب في ذلك أن...**"[22]، أو "**وبيانه...**"[23]، أو "**ومثال ذلك...**"[24]، وهكذا مما شابه ذلك[25]، وهذا بخلاف العناوين الإخبارية.

وقد استنبط صاحب المقدمة كثيرا من تلك النظريات/القواعد من آي القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية، أو أنه اعتمدها للإثبات أو للتزكية، كما استفاد أيضا من الأشعار والأمثال والحكم ومن اجتهادات الأقدمين، من ثقافات مختلفة؛ لذلك كانت مظانُّه متنوعة المشارب والمذاهب والتخصصات، من يونانية ولاتينية وإسلامية وغيرها. ولهذا فإن النظريات أو الآليات المفسرة للأخبار ولوقائع التاريخ تشكل نقطة القوة في الفكر التاريخي الخلدوني، نظرا لتعددها وتنوعها، وللصرامة المنهجية والعلمية والمعرفية في اعتمادها.

وتعتبر العوامل الجغرافية من أهم العوامل المعتمدة لتفسير أسباب تلك الأخبار والوقائع، وهو الذي سنحاول أن نوضح جانبا منه، هنا، بالتركيز، في المقام الأول، على تأثير بعض تلك العوامل في حركة مجموعة من العناصر والظواهر التاريخية والإنسانية عموما، وفي الظاهرة الدينية –السماوية الأصل– خصوصا، نظرا لأنها ابنة بيئة طبيعية وجغرافية خاصة، تتمتع بمكانة مميزة في التراث الديني العام، والإسلامي منه بشكل خاص، ولأن العامل الديني كان حاضرا بقوة في مشاريع الدول الإسلامية عامة، وعليه وعلى رموزه عوّل كثيرون من المدعين والطامعين في السلطة من أجل استقطاب جموع المتعاطفين والمؤيدين والأنصار.

ب – العامل الجغرافي وتفسير الظواهر التاريخية والإنسانية: التقعيد للظاهرة الديني

تحتل العوامل الجغرافية، كآليات لتفسير الظواهر التاريخية والإنسانية في "المقدمة"،

(19) انظر مثلا: م. ن.، الباب الثاني، عنوان الفصل الأول، : "**في أن أجيال البدو والحضر طبيعية**"، ص. 114، وهنا وهناك.
(20) انظر مثلا: م. ن.، الباب الثاني، الفصل الرابع، ص. 116، وهنا وهناك.
(21) انظر مثلا: م. ن.، الباب الثاني، الفصل السادس، ص. 119، وهنا وهناك.
(22) انظر مثلا: م. ن.، الباب الثاني، الفصل الخامس، ص. 118، وهنا وهناك.
(23) انظر مثلا: م. ن.، الباب الثالث، الفصل الثالث عشر، ص. 157، وهنا وهناك.
(24) انظر مثلا: م. ن.، الباب الخامس، الفصل الثاني والعشرون، ص. 375.
(25) انظر نماذج أخرى هنا وهناك في م. ن.

حيزا مهما جدا، ويشمل ذلك الجغرافيا الطبيعية والبشرية وفروعها العديدة والمختلفة. بل إنه يمكن القول إن النظريات الخلدونية في الكثير من العلوم المسطّرة في "**المقدمة**" تكاد تتأسس في معظمها على التعليل الجغرافي، وهو ما يجد مصداقيته ومعناه في أن المقدمات الست[26]، التي تصدرت "**الباب الأول**" من الكتاب، والتي جاءت مباشرة بعد "**خطبة الكتاب**"[27] و "**المقدمة في فضل علم التاريخ**"[28]، كانت في الجغرافيا، بشكل مباشر على العموم، إلا "**المقدمة الأولى**" منها فإنها "**في أن الاجتماع الإنساني ضروري**"[29]، وكذلك "**المقدمة السادسة**" فإنها "**في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا**"[30]، وفيها كلام أيضا عن: "**تفسير حقيقة النبوة**"[31]، و"**الكهانة**"[32]، و "**الرؤيا**"[33]، و"**الإخبار بالمغيبات**"[34].

واللافت للانتباه أن هذه المقدمة الأخيرة قد تبدو، ظاهريا، شاذة لغياب العلاقة بينها وبين المقدمات السابقة عنها في الجغرافيا؛ غير أننا عندما نتتبع الخيط الرابط بين هذه المقدمات جميعها، نجده يقودنا إلى فكرة مُشاهَدة ومعاينة من قديم، وهي فكرة التنوع والتفاوت والاختلاف، وأيضا فكرة التفوق والتمايز بين السلالات والأجناس بسبب ألوانها وأنماط عيشها وعقلياتها ودرجات تحضُرها، وغير ذلك مما للعوامل الجغرافية دور جلي وتأثير فيه كبير. ويستنتج ابن خلدون من كل هذا أن الأرقى والأكمل والأسمى بين البشر ما كان موطنه أرض الوحي والنبوءة أو قريبا منه، لأنها الأعدل بين الأقاليم، وأنها جُعلت كذلك لتؤدي رسالة إلهية على يد خيار أهلها من أنبيائه ورسله. وهنا يكمن الربط بين قدسية المكان والوحي، أو بالأحرى بين الجغرافيا وتاريخ الديانات السماوية.

---

(26) وهي: المقدمة الأولى: "**في أن الاجتماع الإنساني ضروري**"، والثانية: "**في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم**"، ولها تكملة "**في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي**" و "**تفصيل الكلام على بدء الجغرافيا**"، والثالثة: "**في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم**"، والرابعة: "**في أثر الهواء في أخلاق البشر**"، والخامسة: "**في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم**". م. ن.، انظر هذه المقدمات في صص. 46 – 113.

(27) م. ن.، ص. 9 وما بعدها.

(28) م. ن.، ص. 16 وما بعدها.

(29) م. ن.، ص. 46 وما بعدها.

(30) م. ن.، ص. 89 وما بعدها.

(31) م. ن.، ص. 93 وما بعدها.

(32) م. ن.، ص. 96 وما بعدها.

(33) م. ن.، ص. 99 وما بعدها.

(34) م. ن.، ص. 101 وما بعدها.

ولهذا يُعتبر تصدير الكتاب بتلك المقدمات عن الجغرافيا الطبيعية والبشرية عملا منهجيا، مفاده أن المجالات الجغرافية والعناصر الطبيعية الخاصة بها هي المسرح المستوعب للعمران البشري ومجتمعات مختلف الكائنات الأخرى، وهو ما يتم وفق آليات وضوابط أو قوانين طبيعية شبه محددة أو هي كذلك، يخضع لها المجتمع الإنساني ولا يخرقها إلا الرسل والأنبياء، لحكمة إلهية من وراء ذلك، أو إلا إذا توفرت العناصر المادية والتقنية والفكرية والعلمية والنفسية التي تمكن من تطويعها أو تغيِّر من معادلاتها، ذلك لأن العوامل الطبيعية عموما، هي التي تضبط خريطة أنواع الأجناس والسلالات البشرية والحيوانية والنباتية وأشكالها وألوانها، وتضبط إيقاع الحياة في المكان، وتحدد أنماط العيش والأنشطة المعيشية وفق ظواهرها وقوانينها.

وأكثر من ذلك أن هذه الطبيعة لا يقتصر دورها فقط على مجرد إعداد مسرح عمليات سير التاريخ عموما، وإنما يتعداه إلى تعليم الإنسان أشياء لم يكن يعلمها. فقد تعلّم الإنسان من الطبيعة، بفضل الغراب، كيف يواري سوءة أخيه، بعدما عجز عن ذلك بنفسه[35]، وكذلك تعلّم منها، بفضل محاكاتها وتقليدها، كيف يصنع الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف التي تعوّض المخالب الجارحة، والتراس التي تقوم مقام البَشرات الجاسية[36]، وهكذا.

وتُعتبر مواقعُ الأقاليم، ضمن خطوط الطول والعرض، ثم طبيعةُ الهواء (المناخ) السائد فيها، أهم العناصر الطبيعية المؤثرة في حركة التاريخ وفي الظواهر الإنسانية، والمفسِّرة لها، لأنها مسؤولة، بشكل أو بآخر، عن تلك الاختلافات والتباينات في الإمكانيات والموارد المتاحة في المجالات المختلفة، ومن ثم عن أسباب التباينات والتناقضات والتفاوتات والاختلالات الحاصلة في توزيع السكان بينها وفي الموارد الطبيعية المتوفرة لهم فيها[37]، وهي العوامل التي ينشأ عنها، عادة، الحاجة إلى التعارف من أجل التكامل والتعاون والتبادل، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَجَعلْناكُم شُعوبًا وَقَبائِلَ

---

(35) إشارة إلى حادثة قتل قابيل لأخيه هابيل وعجزه عن كيفية مواراته التراب. راجع قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهم نَبأَ ابْنَى آدَمَ بالحَقِّ إذْ قَرّبا قُرْبانا فَتُقُبّل مِنَ اَحدهما وَلَم يُتقَبّلْ مِنَ الاخر قالَ لأقْتُلَنّكَ قالَ إنّما يَتقبّل اللهُ مِنَ المُتّقينَ لَئن بَسطْتَ إليّ يدَكَ لتقْتُلني ما أنا بباسط يَديَ إليْكَ لأقتُلَكَ إنّيَ أخافُ اللهَ رَبَّ العالَمينَ إنّيَ أريد أَن تَبوء بإثْمي وإثْمكَ فَتكونَ مِنْ اَصْحابِ النّار وذلكَ جَزاءُ الظّالمين فَطوّعَتْ لهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيهِ فَقتَلَهُ فأصْبحَ مِن الخاسرينَ فَبعَثَ اللهُ غُرابا يَبْحثُ في الارْضِ ليُرِيَهُ كيفَ يُواري سَوءَةَ أخيه قال ياوَيلَتي أعَجَزْتُ أنَ اَكونَ مِثْلَ هَذا الغُرابِ فأُواريَ سَوْءةَ أخي فأصْبَح من النادِمينَ.﴾ سورة المائدة، الآيات: 31–29. . (اعتمدنا في هذا العمل قراءة ورش عن نافع).

(36) نقل ذلك عن العالم والطبيب اليوناني جالينوس في كتابه **"منافع الأعضاء"**. المقدمة، م. س.، الباب الأول، صص. 47–46.

(37) راجع: م. ن.، المقدمة الثانية: **"في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم"** وتكملتها: **"في أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي"**. ص. 49 وما بعدها.

لِتَعارَفُوْا﴾ الآية.[38] كما تنشأ عنها كذلك "سنّة التدافع"، لقوله عز وجل: ﴿وَلَوْلا دِفاعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببَعْضٍ لفَسَدتِ الأَرْضُ. ﴾ الآية[39] وهذه الظواهر، على ما يبدو، من أهم "السنَن" أو "القوانين" المحركة للتاريخ.

إن هذا الربط بين الجغرافيا والظواهر الإنسانية، أو بالأحرى بين أحوال المجتمعات وطبيعة بلادها الجغرافية وأخبارها، هو الذي سماه الفيلسوف والاقتصادي الفرنسي جان بودان (1529) (Jean BODIN أو 1596-1530م): "**الجيو-مؤرخ**" أو "**الجيو-تاريخ**"[40]، وقد استلهم ذلك من اطلاعه على كتاب "**وصف إفريقيا**" للحسن الوزّان[41]، ومن تأثُّره بوصفه الدقيق لأحوال المجتمعات التي تحدّث عنها، ومزجه أوصاف الأماكن بأخبار الوقائع والحوادث؛ وهذا ما عبّر عنه عبد الله العروي[42]، من جهته، بـ"**التوطين**".

ومعلوم أن ابن خلدون عندما اعتمد نظرية تأثير البيئة في سير الأحداث والوقائع فإنه، في الواقع، إنما سار على نهج مطروق ومسبوق في التأليف العربي الإسلامي[43]، وقد تم الاهتداء إلى هذه النظرية من خلال الملاحظة البسيطة. فقد لاحظ الفلاسفة الطبيعيون في عهد مبكر، بعد الرعاة والفلاحين والسياح والرحالة وغيرهم، أن كل فصيلة (أسرة) نباتية لا تعيش إلا في ظل شروط طبيعية معينة، توفرها الرقعة الجغرافية الملائمة المحدودة من الأرض، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة لكل فصائل (أسر) الحيوانات والطيور والجوارح والزواحف والأسماك والحيتان...، لكل هذه الكائنات وغيرها "**وطن**"، ولا يُستثنى الإنسان من هذه القاعدة.[44]

وبما أن الإنسان يعيش في وسط/مجال/محيط أو بالأحرى في "**وطن**" معيّن مع كل هذه الكائنات، ومنها غذاؤه ولباسه ومسكنه، وكل ما هو "حاجي" أو حتى كمالي - بالتعبير الخلدوني[45]- فإنه لابد وأن يتأثر، في جسمه وذهنه، بهذا "**الوطن**" الذي

---

[38] سورة الحجرات، الآية 13

[39] سورة البقرة، الآية 249.

[40] Jean BODIN; op. cit., p. 64.

[41] الحسن بن محمد الوزّان، **وصف إفريقيا**. جزآن، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، 1980 و1982.

[42] م. س.، 2: 252، والهامش رقم 1. وقد اقتبس العروي لفظ "الوطن" (ج. أوطان) من "**مقدمة كتاب العبر**" نفسها، انظر: المقدمة، م. س.، الباب الثالث، الفصل السابع، "**في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها**"، ص. 150، وهنا وهناك.

[43] العروي، م. س.، 2: 253.

[44] المكان نفسه.

[45] المقدمة، م. س.، الباب الأول، الفصل الثالث، ص. 116، وهنا وهناك.

يقطن فيه، تماما كما تتأثر حتما مشاريعه بما يحيط بها، سواء في مرحلة تصوُّرها أم عند تنفيذها. كما أن تلك المشاريع تَترك، بعد إنجازها، آثارا ثابتة أو شواهد مادية في الرقعة الأرضية التي تُنجز فيها.[46]

إن هذا يعني أن العلاقة بين البيئة الطبيعية والإنسان مزدوجة: من جهة، بين البيئة والإنسان (خَلقا وخُلقا)، ومن جهة، بين البيئة والحوادث والوقائع، أي ما يصدر عن الإنسان، ومن لم يُدرك هذا التمييز يسقط في خطإ كبير، على حد قول العروي[47]، الذي استدل على ذلك، من "المقدمة"، بجملة من المقتطفات التي تثْبت تجاوز الفكرة نطاق الأخلاق إلى مجالات أخرى من قبيل الاقتصاد والثقافة بوجه عام، وهي المقتطفات التي تتمحور حول تأثير عوامل البيئة الطبيعية، وأهمها -كما سبق القول - الموقع من خطوط الطول والعرض ثم تأثير الهواء (المناخ).

1 - الموقع

قسّم القدماء الأرض إلى سبعة أقاليم[48]، وتتحدد أهمية المجالات الجغرافية، بصفة خاصة، حسب موقعها من تلك الأقاليم السبعة ومكانِها من خطوط الطول والعرض. وقد أكد ابن خلدون "**في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم**"[49]: "أن المعمور (...) من الأرض إنما هو وسطُه، لإفراط الحر في الجنوب منه والبردِ في الشمال."[50] وتتدرج الكيفية من كليهما إلى هذا الوسط فيكون معتدلا. وهكذا "فالإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافّاته من الثالث والخامس أقربُ إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير."[51]

وتتأثر المجتمعات البشرية كثيرا بالعوامل الجغرافية والطبيعية لهذه الأقاليم، وهكذا فأهل الأقاليم المعتدلة يتميزون بأنهم "أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم (...) وتوجد

(46) العروي، م. س.، 2: 253.
(47) المكان نفسه.
(48) انظر: المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الثانية، ص. 49.
(49) م. ن.، الباب الأول، المقدمة الثالثة، ص. 79.
(50) المكان نفسه.
(51) المكان نفسه.

لديهم المعادن الطبيعية (. . .) ويتصرفون في معاملاتهم بالنقديْن العزيزيْن[*] (. . .) ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم. . . "[52]

فلهذا إذن، كما قال ابن خلدون: "كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوءات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خَلقهم وأخلاقهم. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خيْرَ أُمّة أُخْرجَتْ للنّاس﴾[53] وذلك ليَتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله. "[54] ، وكأن ابن خلدون يستحضر، هنا، قوله عز وجل: ﴿وَكذلِكَ جعَلْناكُم أُمّةً وَسَطا﴾ الآية.[55]

صحيح أن الأقاليم المعتدلة تشمل بلادا شاسعة جدا، تضم، بصفة عامة، حوض البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب وما والاها إلى الشرق، وهو ما يعني به ابن خلدون: بلاد "أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيْن والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومَن قرُب منها من الفرنجة والجلالقة والروم واليونانيين، ومَن كان مع هؤلاء أو قريبا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة. "[56] لكن مركز الاعتدال، بالنسبة لهذه الأقاليم، حسب ما يُستشف من إيحاءات ابن خلدون ومن تصوره وغايته، هو موطن الرسالات السماوية، أي ﴿البَلَد الأَمين﴾ الآية[57] ﴿وَالبَلَدُ الطّيّبُ﴾ الآية[58] الذي ﴿خْرُجُ نَباتُه بإِذْن رَبّه﴾ الآية[59] .

وعلى العكس من ذلك فإن الأقاليم الأخرى، لما كانت منحرفة عن الأقاليم المتوسطة وبعيدة عنها، فإن أهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم: في مساكنهم وأقواتهم، وفي ملابسهم ومعاملاتهم، وفي أخلاقهم التي هي "قريبة من خُلُق الحيوانات العُجم، حتى ليُنقل عن الكثير من السودان [مثلا] (. . .) أنهم يسكنون الكهوف والغياض،

(*) يعني: الذهب والفضة.

(52) المقدمة، م. س.، المقدمة الثالثة، ص. 79.

(53) سورة آل عمران، الآية: 110.

(54) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الثالثة، ص. 79.

(55) سورة البقرة، الآية: 142.

(56) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الثالثة، ص. 79.

(57) سورة التين، الآية 2.

(58) سورة الأعراف، الآية 57.

(59) سورة الأعراف، الآية 57.

ويأكلون العُشب، وأنهم غير مستأنِسين يأكل بعضهم بعضا، وكذلك الصقالبة (...)

وكذلك أحوالهم في الديانة أيضا، فلا يعرفون نبوة ولا يَدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو في الأقل النادر..."[60]

ويطال هذا الزيغان عن الاعتدال، في الأقاليم المنحرفة والبعيدة، كذلك ألوان البشر، فهي تروم بالتدريج إلى السواد في الجنوب مع ارتفاع شدة الحرارة والقيظ، وإلى الزعورة والبياض في الشمال من شدة البرودة والثلوج.[61]

إن نظرية ابن خلدون تؤكد هنا الاختلاف الحاصل في الاجتماع البشري بحسب الأقاليم وما يتوفر فيها من إمكانيات وثروات طبيعية ومادية وأنماط عيش، وهو الاختلاف الذي يسري على الأجيال أيضا، وقد أكد ذلك بالقول: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش."[62]

ولكن أهم ما في هذه النظرية هي أنها تُقعّد للظاهرة الدينية، وهي الظاهرة التي جاءت بالخوارق من الآيات والمعجزات الخارجة عن العادة والمألوف وعن قوانين الطبيعة ونواميسها، وهي الظاهرة الإيمانية التي ساهمت بشدة، سواء داخل المجتمع الواحد أم بين المجتمعات والشعوب، في حدة التدافع ومن ثم في حدوث مجموعة من الظواهر الإنسانية والتاريخية التي تشهد عليها الكتابات والروايات والشواهد المادية المختلفة، والحضارة، بمفهومها الواسع، من بينها.

وغني عن القول إن اختلاف ألوان البشر اعتُمد من قديم وسيلة للتمييز بين الأجناس، أو بين الأنا والآخر المختلِف، واستغل لبناء التراتبات والطبقات الاجتماعية والاقتصادية، من خلال ظاهرة العبودية والاسترقاق، والتي كان من نتائجها أيضا ظاهرة استنزاف الطاقة البشرية، الإفريقية خاصة، في إطار ما عرف بـ"التجارة الثلاثية" بين إفريقيا وأوربا وأمريكا، والتي استمرت منذ عصر الكشوفات الجغرافية وطوال العصر الحديث[63]، ثم ما ترتب عن كل هذا من نظريات عنصرية استُغلت لأغراض استعمارية، كما هو الحال بالنسبة لـ"نظرية الحتمية الجغرافية" مثلا.

---

(60) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الثالثة، ص. 80.

(61) م. ن.، الباب الأول، المقدمة الثالثة، قصص. 82-79.

(62) م. ن.، الباب الثاني، الفصل الأول: **"في أن أجيال البدو والحضر طبيعية"**، ص. 114.

(63) انظر: محمد استيتو، **"الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م"**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، العدد الثاني، 1991، صص. 164-155.

2 - تأثير الهواء (المناخ)

لقد استدل ابن خلدون، في "**المقدمة الرابعة**" التي جعلها "**في أثر الهواء في أخلاق البشر**"(64)، على حصول هذا التأثير بالاختلاف البيِّن بيْن أخلاق السكان في الأقاليم المختلفة، تبعا لطبيعة مناخها. ففي الأقاليم الحارة، مثلا، ومنها بلاد السودان والبلاد المماثلة لها في الهواء، يُلاحظ أنه "من خُلُق السودان، على العموم، الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قُطر."(65) وذلك على عكس الأقاليم والبلاد الباردة، التي أكثر ما يستولي على أخلاق أهلها طبيعة الحزن والانقباض.(66)

وقد لاحظ صاحب "**المقدمة**" أن تأثير الهواء في أخلاق البشر يتجاوز مستوى التأثير النفسي، الذي يتدرج بين الانشراح والعفوية وبين الانقباض والقلق، إلى مستوى "ثقافة" التدبير والاقتصاد، ويتمثل ذلك في سيادة طبائع وعادات وسلوكيات جماعية، تتراوح ما بين شدة الاستخفاف بأمر المعاش والغفلة عنه، وبين كثرة الحرص عليه وتَدبُّره؛ وضرب لذلك، مثلا، بالاختلاف المشهود بين أهل مصر وبين أهل فاس، حيث قال: "واعتبر ذلك بأهل مصر، فإنها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها، كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب، حتى إنهم لا يدّخرون أقوات سَنتِهم ولا شهْرهم، وعامة مآكلهم من أسواقهم. ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مُطرقين إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في نظر العواقب، حتى إن الرجل منهم ليدّخرُ قوت سنَتين من حبوب الحنطة، ويباكرُ الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يُرزأ شيئا من مُدّخَره."(67)

ولكن ابن خلدون عندما بيّن ما لهذه العوامل الطبيعية وللمجالات تحديدا، أو بالأحرى لـ "**الأوطان**"، من دور في الاجتماع البشري، وأن أعْدَلها وأهمها التي تقع في الأقاليم المتوسطة المعتدلة، كما سبق، فإنه لم يأخذ ذلك على المطلق، وإنما بناء على القاعدة التي تعتورها الاستثناءات، وهي التي ضمنها "**المقدمة الخامسة**" "**في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر**

---

(64) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الرابعة، ص. 83.

(65) المكان نفسه.

(66) المكان نفسه. (اقتبس ابن خلدون هذه الفكرة من المسعودي، ولكنه اختلف معه في تعليل سبب خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم. راجع: م. ن.، صص. 83 – 84.)

(67) م. ن.، الباب الأول، المقدمة الرابعة، ص. 83.

وأخلاقهم"[68]، وذلك لأن "هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش؛ بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش، من الحبوب والأُدْم والحنطة والفواكه لزكاء(*) المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران، وفيها الأرض الحَرّة التي لا تُنبت زرعا ولا عشبا بالجملة، فسكانها في شظف من العيش..."[69]

وقد ترتب عن كثرة الخصب أو ندرته اختلاف في أنماط العيش والتغذية، ومن ثم في ألوان الناس وأجسامهم وأشكالهم وأخلاقهم، فالفاقدون للحبوب والأدم من أهل القفار، مثلا، هم "أحسن حالا في جُسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش: فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات (...) والسبب في ذلك (...) أن كثرة الأغذية وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة ورطوباتها تولّد في الجسم فضلات رديئةً ينشأ عنها بُعْد أقطارها في غير نسبة، ويتبع ذلك انكساف(**) الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم (...) وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى الدماغ من أبخرتها الرديئة، فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة."[70] إن هذا فحواه أو معناه أن الإنسان ابن بيئته، على غرار الحيوان.

وعلى ذكر الحيوان فإن ابن خلدون يعتبر أن هذه الظاهرة الطبيعية قاعدة عامة تسري عليه هو أيضا، فالبون – عنده – كبير جدا بين حيوانات القفر ومواطن الجدب، وبين أمثالها من حيوان التلول والأرياف والمراعي الخصبة، ويتجلى ذلك في صفاء الأديم، وحسن الرونق والشكل، وتناسب الأعضاء، وحدة المدارك.[71] وكأن الطبيعة، في هذه المناطق، عندما ينسجم معها العنصر البشري ويتلاءم، ولا يعتدي عليها، تمده، بفضل ذلك، بعناصر التفوق والاصطفاء من خلال عمليات الصقل والتشذيب والشحذ، تماما كما تنحت العوامل الطبيعية الأخرى المختلفة أشكال التضاريس الرائعة في المجالات المتنوعة وفي الصخور الصلدة.

ويؤثر الخصب. كذلك في أحوال الدين والعبادة، فالمتقشف، الذي يأخذ نفسه بالجوع والابتعاد عن الملاذ، تجده أحسنَ دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب؛

---

(68) م. ن.، الباب الأول، المقدمة الخامسة، صص. 85 – 88.
(*) بمعنى: الجودة ولطيب.
(69) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الخامسة، ص. 85.
(**) تغير.
(70) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الخامسة، صص. 85.
(71) المكان نفسه.

ولذلك "نجد أهل الدين قليلين في المدن والأمصار لما يعمُّها من القساوة والغَفلة المتصلة بالإكثار من اللحمان والأُدم ولباب البُرّ. ويختص وجود العُبّاد والزهاد بالمتقشفين في غِذائهم من أهل البوادي."[72]

بل إنه من أثر الخصب في الأبدان، أن المُخصِبين في العيش، المنغمسين في طيباته، من أهل البادية أو من الحواضر والأمصار، "إذا نزلت بهم السنون[*] وأخذتهم المجاعات يُسرع إليهم الهلاك أكثر من غيرهم (...) والسبب في ذلك –والله أعلم– أن المنغمسين في الخصب، المتعودين للأدم والسّمن خصوصا، تَكتسب من ذلك أمعاؤهم رطوبة فوق رطوبتها الأصلية المزاجية حتى تُجاوز حدها، فإذا خولف بها العادةُ بقلة الأقوات وفقدان الأدم واستعمال الخشنِ غير المألوف من الغذاء أسرع إلى المعْي اليَبَس والانكماش (...) فيسرع إليه المرض ويهلَك صاحبه دَفْعة لأنه من المقاتل[**]. فالهالكون في المجاعات إنما قتلهم الشِّبَع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق."[73]

أما المتعودون على التقشف والقلة من الطعام، فعلى العكس من ذلك، تظل "رطوبتهم الأصلية واقفة عند حدها من غير زيادة، وهي قابلة لجميع الأغذية الطبيعية، فلا يقع في مِعاهُم بتبدل الأغذية يَبَسٍ ولا انحراف، فيسلمون في الغالب من الهلاك الذي يعْرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأُدم في المآكل."[74]

إن هناك إدراكا ووعيا قويين، عند ابن خلدون، بقوة الربط بين العناصر الطبيعية والبيئية المختلفة، وبين أحوال الإنسان والعمران البشري، تماما كما بين الوقائع والأحداث وبين مواطنها، وذلك من باب ربط العلل بأسبابها، وهو ما لاحظه ونبّه عليه، مثلا، في فصل: "**فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة**"[75]، الذي لفت الانتباه فيه إلى أهمية اختيار الموقع الجغرافي الملائم عند اختطاط المدن، بحيث "يُراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب

---

(72) م. ن.، الباب الأول، المقدمة الخامسة، ص. 86.

(*) يعني المجاعات والمساغب.

(**) المقاتل عشرة، خمسة متفق عليها، ومثلها مختلف بشأنها، فأما المتفق عليها فهي: انقطاع النخاع، وانتثار الدماغ، وقطع الحلقوم والودجين عرضا، وقطع المصران الأعلى أي المريء الذي يدخل منه الطعام والشراب، ويكون بإزاء الحلقوم، ويسمى عند أهل المغرب بأبي حشيشة. وأما المختلف فيها، فهي: اندقاق العنق، وشق الحلقوم والودجين، وشق المصران [الأمعاء] طولا، وانتثار الحشوة، وهو أن يخرج ما في المصران أو ينقطع منه شيء، وثقب الكرش. راجع: مَحمد بن ناصر الدرعي، **الأجوبة الناصرية في بعض مسائل البادية**. طبعة حجرية، فاس، 1319 هـ، ص. 49.

(73) المقدمة، م. س.، الباب الأول، المقدمة الخامسة، ص. 86.

(74) م. ن.، الباب الأول، المقدمة الخامسة، صص. 86 – 87.

(75) انظر: م. ن.، الباب الرابع، الفصل الخامس، صص. 321 – 323.

المنافع وتسهيل المرافق لها."[76]

وقد حدد المضار في عاملين: بشري (الحروب)، وطبيعي (الأمراض والأوبئة). وهكذا، فلدفع المضار البشرية، نصح ابن خلدون ببناء المدن في ممتنِع من الأمكنة، إما على هضبة متوعّرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يُوصَل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها على العدو.[77]

أما "للحماية من الآفات السماوية" (الأوبئة)، فيُراعى "طيب الهواء للسلامة من الأمراض"، وذلك لأن "الهواء إذا كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة أو لمناقع متعفنة أو لمروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، وهذا مشاهَد."[78]

وجدير بالذكر أن الوعي بأهمية سلامة الهواء بالنسبة لصحة المحيط الاجتماعي، وبدور المياه الآسنة في تفشي الحميات والأمراض والأوبئة كان هو كذلك معروفا ومطروقا. فقد حرص لسان الدين بن الخطيب (ت. 776 هـ/1374م) – وهو معاصر لابن خلدون–، مثلا، على التنبيه على هذا الأمر في عرضه لمُدن الأندلس والمغرب الأقصى، وذلك ضمن كتابه "**معيار الاختيار**"[79]. ولفت الحسن الوزّان[*]، بعده هو

(76) م. ن.، الباب الرابع، الفصل الخامس، ص. 321.

(77) المكان نفسه.

(78) المكان نفسه.

(79) **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**. تحقيق: محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دون تاريخ. وندرج تعليقات ابن الخطيب في الجدول التالي:

المدينة	وصف الهواء	ص.
جبل الفتح (طارق)	هواؤه صحيح	82
بليش مالقة	خُبث مائها	92
النكب	هواؤها فاسد ووباؤها مستأسد	96
شلوبانية	غاب الحميات	98
أورية	بلد الهواء الذي يذهب بالكسل	107
بسطة	طيب هوائها غير متبدل	109
أندرش	هواؤها لا يلفى معه كسل	111
وادي آش	هواؤها يذكي طبع البليد	112
غرناطة	هواؤها صافٍ وللأنفاس مصافٍ حجبت الجنوب عنها الجبال	117
	فأمن الوباء والوبال	
ذكوان	طاب هواؤها	128
قصر كتامة	جثم الهواء الخبيث في بطحته وربض، وانبسط وما انقبض، وجهز ليله عسكر البعوض الهاجم، درية بمص المحاجم	150
الرباط	الحَزن بها فاسد وبعوضها مستأسد	155
أنفا (الدار البيضاء)	ماؤها وهواؤها عديما الصحة	158
آسفي	رافعة اللواء بصحة الهواء	160
مراكش	هواؤها محكم في الجباه والجنوب، يحمي عليها بكير الجنوب، وحمياها كلفة بالجسوم طالبة ديونها بالرسوم	163
أغمات	هواؤها صحيح	164
آفر سلوين	هواؤها ملائم	180
تازة	وطن طاب ماؤه وصح هواؤه	182
تلمسان	هواؤها الممدود صحيح عتيد	184

(*) ولد الحسن الوزان بغرناطة في حوالي عام 888 هـ/84–1483م وانتقل مع أسرته إلى مدينة فاس خلال السنوات القليلة قبل سقوط غرناطة في يد الإسبان.

أيضا، الانتباه إلى انتشار هذه الظاهرة الطبيعية[80]، كما في حديثه عن منطقة زواغة، وقد كانت غزيرة المياه، كثيرة المروج، ومنها تتزود فاس بحاجاتها من الخضر والفواكه، حيث قال: "غير أن هواء هذه الناحية وخيم، ومعظم سكانها صُفر الوجوه، يُعانون من حميات شديدة، يموت بسببها عدد كثير منهم."[81]

وغني عن القول، في هذا الصدد، إن استحضار ابن خلدونْ لتأثير الهواء، أو الوباء، في العمران البشري والدول، لا ينبعث فقط من مجرد الاطلاع أو حتى من المعاينة الشخصية لآثار الأوبئة الكثيرة التي كانت تتردد على بلاد المغرب عامة[82]، وإنما، وبصفة خاصة، لأنه عاصر وتأثر نفسيا، وهو في سن المراهقة تقريبا، بما كابده الناس من جراء **"الطاعون الأسود"**، الذي ضرب، في منتصف القرن 8 هـ/14م، حوض البحر المتوسط برمته، وبانعكاساته السلبية الخطيرة على أحوال العمران؛ وهو ما نستشفه بوضوح قوي في بلاغة النص الذي أفرده لهذه الكارثة الطبيعية، وفي دقة الوصف لهول ما حدث، وفي استقصاء أكثر لأخبارها، وفي شدة إمعان النظر في نتائجها العامة، وغير ذلك مما جاء في **"المقدمة في فضل علم التاريخ"**[83]، والتي كاد ابن خلدون أن يشبه فيها أحوال العالم، بعد هذا الوباء، بأحواله بعد حادث الطوفان في زمن نوح، عليه

---

[80] الوزان، م. س.، انظر هنا وهناك. وقد بين الدكتور ج. گود (J. GAUD) في كتابه: **"جغرافية الأمراض"**، أن المستنقعات كانت لا تزال تتسبب في انتشار الأوبئة على نطاق واسع بالمغرب في النصف الأول من القرن العشرين، ونعتقد أن الأمر كان أخطر في العصور السالفة. انظر بصفة خاصة الخريطة التي أنجزها الباحث حول: "حمى المستنقعات في المغرب الشمالي سنة 1945م":
Dr. J. GAUD ; Géographie des maladies. Rabat, 1956, p. 10.

[81] الوزّان، م. س.، 1: 218..

[82] قال الوزّان، مثلا: "يظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة سنة، أو خمس وعشرين سنة. وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس (...) ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة، ولم يظهر في أرض السودان." (م. ن.، 1: 68.)؛ وسجل الراهب الإسباني هيدو (HAEDO) -كان أسيرا بمدينة الجزائر بين عامي 1578 و1581م- من جهته أن الطاعون يضرب مدينة الجزائر -وبلاد المغرب عامة- كل عشر سنوات، أو اثني عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، ينتقل إليها عادة من مينائها، الذي يتردد عليه التجار من مختلف الأصقاع.
J. MARCHIKA; La peste en Afrique septentrionale. Histoire de la peste en Algérie de 1363 à 1830. Thèse, Faculté de médecine d'Alger, 1927, pp. 38-39.
راجع كذلك: محمد استيتو، **الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17م**. مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، 2004، صص. 67-84.

[83] مما جاء فيه: ((... هذا إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف، الذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها وفلّ من حدها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخَرِبَت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلَت الديار والمنازل، وضعُفت الدول والقبائل، وتبدّل الساكن. وكأني بالمشرق قد نزل به مثلُ ما نزل بالمغرب، لكن على نسبته ومقدار عُمرانه. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة. والله وارث الأرض ومن عليها.)) المقدمة، م. س.، ص. 38.

السلام، وكله من فعل الطبيعة، فانظر قوله: ((... وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد، ونشأة مستأنفة وعالم مُحدَث. فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها، والعوائدَ والنحل التي تبدلت لأهلها.))[84] واعقل هذا القول وتدبّره.

وأما بخصوص "جلب المنافع وتسهيل المرافق" للبلد فيُراعى فيها القرب من: مصادر **المياه** العذبة، وطيب **المرعى** للسائمة، والمزارع للأقوات، و**الشجر** للحطب والبناء، و**البحر** لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية، وإن كانت هذه ليست بمثابة الأول من الأهمية.[85]

لقد كان ابن خلدون متضلعا فعلا في جغرافية المدن، تماما كما في الجغرافية السياسية[86]، والجغرافية الاقتصادية والفلاحية والتجارية والصناعية[87]، وفي الديمغرافيا التاريخية[88]...، وليس هذا بالأمر الغريب ما دام أنه استند إلى عوامل جغرافية لتفسير حركة التاريخ والظواهر الإنسانية، ومن أبرزها الظاهرة الدينية.

ج – الجغرافيا والظاهرة الدينية

لقد أشرنا أعلاه إلى أن "**المقدمات**" الجغرافية لكتاب "**المقدمة**" إنما كانت الغاية منها هي التعريف بالمسرح الجغرافي، الذي أُعدّ لاحتضان الديانات السماوية، وإبراز أهميته ومدى أهليته ومشروعيته لهذا الغرض الجسيم. وبهذا فإن تلك "**المقدمات**" إنما هي أرضية تمهيدية ومنهجية وتبريرية لما تضمنته "**المقدمة السادسة**" من حديث عن ظاهرة الوحي والنبوة[89]، وتقعيدا للظاهرة الدينية أساسا، وهي الظاهرة التي لا يمكن أن تحدث إلا في المعتدل من أقاليم المعمور –أي في البقاع المباركة والمقدسة من الأرض– حيث إن أهل هذا الإقليم المعتدل يكونون هم كذلك أعدل وأكمل في خَلْقهم

---

(84) المكان نفسه. (هذا النص تتمة للوارد في الهامش قبله.)

(85) م. ن.، الباب الرابع، الفصل الخامس، ص. 322.

(86) انظر، مثلا، م. ن.، الباب الرابع، الفصل التاسع عشر: "**في أن الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها**"، صص. 347–349، وهنا وهناك.

(87) أفرد لها ابن خلدون الباب الخامس، وهو: "**في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع...**". م. ن.، ص. 353 وما بعدها، وهنا وهناك.

(88) انظر، مثلا، ما أورده بشأن تحفظه من إحصاء الأعداد من العساكر وغيرهم، ومنها أعداد بني إسرائيل من عهد يعقوب إلى زمن التيه في عهد موسى، ثم إلى عهد سليمان. م. ن.، **المقدمة في فضل علم التاريخ**، صص. 16 – 18.

(89) نذكّر أن هذه المقدمة هي "**في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرياضة ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا**"، وفيها: "**تفسير حقيقة النبوة**"، و "**الكهانة**"، و "**الرؤيا**" وفصول. راجع: م. ن.، الباب الثاني، ص. 89 وما بعدها.

وخُلُقهم، وبعيدين عن الطبائع المنحرفة، لأنه من بينهم يُصطفى أعدلهم وأكملهم، وأشرفهم نسبا وحسبا، ليُحمّلوا الرسالات السماوية، وهم الأنبياء والرسل، الذين يختص بهم أكمل النوع، وذلك ليَتم القبول بهم وبما يأتون يه، ويُصدّقون ويكونوا حجة على غيرهم من أممهم ومن غيرها أيضا.

إنها إذن علاقة متينة ومتكاملة بين "البقاع المقدسة" وبين الأنبياء والرسل، أو بالأحرى بين الجغرافيا والدين، ويكفي أن نذكّر، في هذا الصدد، بأن تلك البقاع المقدسة(*) إليها يولي المؤمنون وجوههم شطرها في صلواتهم ودعائهم، وإليها يحجون، تيمّنا وتبركا، أو لقضاء ركن من أركان دينهم، ونحوها تُوجّه رؤوسُهم ووجوهُهم في مدافنهم عند مماتهم(**)، وبها يتمنى أن يقضي نحْبَه معظمُهم أو أكثرهم، وأن الأنبياء والرسل مبجّلون ومقدّسون، تُتّبع شرائعهم ومللهم، ويُعمل بأحاديثهم وبسُننِهم، وتزار مزاراتهم ويُتَبرّك بها، واعتُبرت تواريخ ميلادهم أعيادا، واتُّخذت محطات من تاريخ حياتهم أو سيرهم تواريخ للتقويم وعدّ السنين... هذا ولا حاجة إلى التذكير بما لعبته تلك الديانات السماوية في التاريخ الإنساني عموما، وعلى مختلف الأصعدة، ولا بما دار على تلك البقاع المقدسة ولأجلها بين معتنقي تلك الديانات من صراعات وحروب، لا تزال مستعرةً نارها، وستظل كذلك، حسب التراث الديني لأتباع تلك الديانات، إلى أن "يُخمِدها المسيح والمهدي المنتظر بعد عودتيهما"، حسب اعتقاد العديد من المذاهب والفرق والكنائس اليهودية والمسيحية والإسلامية على حد سواء.

فلكل هذا يمكن القول إن ابن خلدون كان "محقا" في استنتاجاته وتخريجاته عندما جعل من الأقاليم، التي بها الأراضي المقدسة – مهبط الوحي والرسالات ومنبت الأنبياء والرسل– مركز الأرض ومحورها، ليس فقط لأن الديانات السماوية نشأت فيها، ومنها انتشرت في أصقاع الأقاليم الأخرى، أو لما لعبته الظاهرة الدينية من أدوار في التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والفكري لأمم وشعوب كثيرة، بل وكذلك لما تولّد عن الاجتهادات فيها من اختلافات وتناقضات ومن غُلو وتعصب بين أتباع تلك الديانات مما نتج عنه، عبر العصور، ذلك "الصراع الديني"(***)، الذي

(*) منها مثلا: هيكل سليمان باورشليم وكذلك حائط البراق (أو حائط المبكى)، أوبيت لحم حيث وُلد المسيح عيسى بن مريم، أوبيت الله الحرام، بمكة المكرمة، الذي رفع قواعده أبو الرسل إبراهيم وابنه إسماعيل، عليهما السلام، وهو قبلة المسلمين الثانية بعد الأقصى...

(**) كما هو معلوم يُدفن المسلم ورأسه ووجهه نحو مكة المكرمة، ويدفن اليهودي ورأسه ووجهه نحو أورشليم/القدس.

(***) منها، على سبيل المثال، تلك الحروب التي نشبت بين "دار الإسلام" و"دار الكفر" إبان الفتوحات الإسلامية، و"الحروب الصليبية"، و"حركة الاسترداد" في شبه الجزيرة الإيبيرية، وما إلى ذلك. ويدخل في هذا الإطار كذلك الحروب الدينية بين المذاهب والفرق في الديانات المختلفة، مثل الحرب التي دارت بين أتباع الكنيسة الكاثوليكية والمنشقين عنها من أتباع الكنيسة الإنجيلية البروتستانتية...

تسلل حتى إلى داخل هذه الديانات نفسها وفجرها، فنسلت منها العديد من المذاهب والفرق، والطرق والطوائف، والتيارات الدينية والفكرية والفلسفية وغيرها، لكي تبقى سنّة التدافع في الأرض سارية، يذكيها أكثر عامل الدين وجاذبية البقاع المقدسة، أي العقيدة والمجال الجغرافي الذي ظهرت فيه أو منه انطلقت. أولم يقل عز وجل: ﴿وَلَو شَاء الله لَجَعَلكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً؛ وِلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتاكُمْ؛ فَاسْتَبِقُوْا الخَيْرات؛ إِلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ فيِهِ تَختَلِفونَ.﴾[90]؟ لقد أبى سبحانه وتعالى أن يجعل الشعوب والقبائل كافة، ولا حتى أتباع الديانات السماوية على ملة واحدة أو دين، وذلك ليحدث الاختلاف المفضي إلى سنة التدافع، وسير التاريخ بلا توقُّف.

وقد لعبت الظاهرة الدينية، على المستوى السياسي خاصة، -كما هو معلوم- أدوارا مهمة ورائدة وحاسمة في تاريخ أمم ودول كثيرة، والدول الإسلامية من بينها. وسنحاول أن نبرز هذا الدور، بالنسبة لتاريخ بعض الدول الإسلامية، ولاسيما منها دول المغرب الإسلامي، في مجموعة من الظواهر، منها:

1 - العلاقة بين الدين والعصبية

تبرز العلاقة بين الدين والعصبية، مثلا، في "التحالف" واتفاق المصالح بينهما وخدمة بعضهما البعض، فـ"**الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**"[91]، إذ إنه "ما بعث الله نبيا إلا في منعة من قومه."[92] و"**الدول العامة الاستيلاء العظيمة المُلك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق**"[93]، علما أن "المُلك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمْعُ القلوب وتأليفُها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه."[94] كما "**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها.**"[95]

ولكن وكما أن الدولة العصبية قد تستغني عن عصبيتها[96]، بموجب بعض

(90) سورة المائدة، الآية 50. وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿وَلَو شَاء الله لَجَعَلكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدي مَنْ يَشاءُ وَلَتُسْئَلُنّ عَمّا كُنْتُمْ تَعْلمُونَ.﴾ سورة النحل، الآية 93.

(91) المقدمة، م. س.، الباب الثالث، عنوان الفصل السادس، ص. 148.

(92) حديث منسوب إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، استشهد به ابن خلدون. المكان نفسه.

(93) م. ن.، الباب الثالث، عنوان الفصل الرابع، ص. 146.

(94) المكان نفسه.

(95) م. ن.، الباب الثالث، عنوان الفصل الخامس، ص. 147.

(96) م. ن.، راجع: الفصل الثاني من الباب الثالث: "**في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**"، وفيه يقول ابن خلدون إن النفوس، عندما تستأنس بأعقاب الدول وحكامها مع توالي الأزمان، وتنسى شأن الأوّلية، فإنها إذا نسيت، "واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة، ورسّخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم، وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية، فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة، بل كان طاعتها كتاب من الله لا يُبدّل ولا يُعْلم خلافه..." صص. 143-145.

المتغيرات، فإن الدولة القائمة على الدعوة الدينية، هي أيضا قد تستغني عن العصبية، أو بالأحرى إنها قد تستعيض عنها وقد لا تحتاج إليها وتستبدلها برموز دينية، كما حدث، أحيانا، في الأقاليم البعيدة جغرافيا عن مركز الدولة الإسلامية، حسب ما تضمنه الفصل: **"في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية"**[97]. ويتوقف الأمر هنا تحديدا على آل البيت، الذين استفادوا من نسبهم الشريف للدعوة لأنفسهم، مثل الأدارسة بالمغرب الأقصى، والفاطميين بإفريقية ومصر[98]، ويلحق بهؤلاء أيضا من جاء من بعدهم من سلالات الشرفاء، كالأدارسة الجوطيين[99] والسعديين والعلويين[100] بالمغرب الأقصى دائما، لأن "أحقيتهم" في السلطة استمدت "الشرعية" من الانتماء لآل البيت. وقد يكون تعاطف الناس مع هؤلاء الشرفاء أكثر من غيرهم نابعا من حادثة إقصاء علي - رضي الله عنه - وذريته عن الخلافة، كما هو واضح إلى اليوم في فكر المسلمين عامة، وعند فرق الشيعة بشكل خاص.

2 - انتحال النسب الشريف للوصول إلى الحكم

لقد ترتب عن "الشرعية" التاريخية والمعنوية والرمزية، التي تمتع بها آل البيت بصفة عامة، وذرية علي بصفة خاصة، على المستوى السياسي والاجتماعي والديني والأخلاقي، تفشي ظاهرة ادعاء بعض الدول والأسر الحاكمة الانتماء لآل البيت أو لصحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بحثا عن تلك "المشروعية" المطعون فيها، عندما كانت تفتقد للسند الشرعي، ومنها دول وأسر[101] من المغرب الإسلامي، كدولة الزيانيين بتلمسان، التي ادعى ملوكها أنهم من وُلد القاسم بن إدريس.[102] أو الدولة السعدية، بالمغرب الأقصى، التي طعن في انتساب ملوكها لآل البيت.[103]

(97) م. ن.، الباب الثالث، الفصل الثالث، ص. 145.

(98) م. ن.، الباب الثالث، الفصل الثالث، صص. 145 - 146.

(99) بويع أبو عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني بفاس في رمضان سنة 869 هـ/1465م، بتأييد من الفقيه أبي فارس الورياغلي، أحد أتباع الطريقة الشاذلية الجزولية، وذلك عقب ثورة العامة على عبد الحق، آخر سلطان مريني، وقتله، ودامت دولة الأدارسة الجوطيين ست سنوات ثم قضى عليها بنو وطاس. انظر: أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954 - 1956، 4: 99، و114 - 117.

(100) هناك مصادر كثيرة حول قيام دولتي الشرفاء السعديين والعلويين، انظر مثلا: محمد الصغير اليفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**. (تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998).

(101) ومن ذلك، مثلا، ادعاء بني عبد القوي بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد المطلب، وادعاء بني سعد، شيوخ بني يزيد أنهم من ولد أبي بكر الصديق، وهكذا. انظر: المقدمة، م. س.، الباب الثاني، الفصل الثاني عشر، ص. 125.

(102) المكان نفسه.

(103) نقل الناصري عن المقري أن السعديين هم من بني سعد بن بكر بن هوازن، الذين منهم حليمة السعدية، مرضعة الرسول الكريم، وأنهم لا ينتسبون لآل البيت. انظر: الاستقصا، م. س.، 5: 3.

3 - المهدوية

نشأت المهدوية، كما هو معلوم، عن فكرة شيعية تطورت، عند الشيعة، عن عقيدة اختفاء الأئمة وعودة الإمام المختفي - الذي يسمى بالمهدي المنتظر - ليملأ الأرض عدلا بعد أن تملأ جورا. وقد استُغلت المهدوية كحركة للتغيير السياسي في المغرب الإسلامي، وفي المغرب الأقصى بوجه خاص، غير ما مرة. فقد شهد المغرب في العصر الوسيط عدة حركات لمتنبئين ولمدعين للمهدوية، ومن أشهرها، لنجاحها، حركة المهدي بن تومرت التي قامت على عقيدتها دولة الموحدين. كما اعتمد السعديون بدورهم في بداية أمرهم على الفكرة ذاتها، للدعاية لأنفسهم، لاسيما مع محمد الشيخ المهدي.[104]

وقد ادعى المهدوية أناس كثيرون، في حقب مختلفة من تاريخ المغرب، ولاسيما من أهل التصوف، حيث ادعوا أنهم الفاطمي، أو المهدي المنتظر، وهو من ذرية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وقد ذكر ابن خلدون أنه في صدر القرن 8 هـ/14م خرج رجل من المتصوفة وعمد إلى مسجد بماسة، على ساحل البحر بجنوب المغرب، وزعم أنه الفاطمي المنتظر، وخرج رجل آخر في قبائل غمارة، بالشمال وادعى مثل هذه الدعوة، وأمثال ذلك كثير.[105]

ومعلوم أن مسجد ماسة، الذي تحدث عنه ابن خلدون، هو الذي كان يُعتقد أن المهدي يخرج منه. وقد أكد الوزّان ذلك في معرض حديثه عن هذه الناحية، حيث قال: "ويوجد في خارج ماسة، على شاطئ البحر، مسجد يقدسه الناس كثيرا. ويذكر عدد من المؤرخين أن المهدي المنتظر، الذي سيملأ الأرض عدلا، حسبما أخبر به النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) سيخرج من هذا المسجد."[106]

وقد ابتُلي بوسواس المهدوية[107] في القرنين 10 و11 هـ/16-17م بالمغرب الأقصى، أناس كثيرون[108]، مستغلين الظروف السياسية الصعبة للبلاد، وما كان

---

(104) محمد حجي، **الحركة الفكرية في عهد السعديين**. ج. 1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1976، ص. 227.

(105) المقدمة، م. س.، الباب الثالث، الفصل السادس، ص. 150.

(106) الوزان، م. س.، 1: 90.

(107) محمد حجي، م. س.، 1: 236.

(108) منهم على سبيل المثال: أحمد بن أبي محلي، ومحمد التاهرتي، ومحمد بن إسماعيل الگراري. انظر: محمد حجي، م. س.، 1: 227 - 236.

يُعتقد من أن فناء العالم يكون في ذلك الوقت[109]، ومنهم من أعلن مهدويته في اليمن والعراق وتركيا وليبيا، مثل محمد بن إسماعيل المسناوي الگراري في القرن 11 هـ/17م.[110] هذا وبما أن ظهور المهدي يكون مقرونا بعودة عيسى بن مريم، لذا لم يكن غريبا أن يدعي البعض أيضا أنه هو المسيح العائد.[111]

وقد قال ابن خلدون في حق هؤلاء "المتمهديين": "وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم مُوسْوَسين أو مجانين أو مُلبِّسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رئاسة امتلأت بها جوانحهم وعجزوا عن التوصل إليها بشيء من أسبابها العادية، فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يُؤمِّلونه من ذلك، ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة، فيُسرع إليهم القتل بما يُحْدثونه من الفتنة، وتسوء عاقبة مكرهم."[112]

وعلى أي فإنه سواء تعلق الأمر بظاهرة انتحال النسب الشريف أم بظاهرة ادعاء المهدوية، فإن المنتحلين والمدعين، على السواء، إنما استندوا إلى مكانة آل البيت وقدْرهم ومحبتهم في نفوس المسلمين عامة، لتزكية أنفسهم، والاحتجاج بـ "أهليتهم" للحكم، وآل البيت غير مطعون في نسبهم، كما أنهم حاولوا الاستفادة مما بقي في نفوس المسلمين من تعاطف مع علي وذريته لخروج الخلافة من أيديهم للتشبث بهذا الحق وادعائه، كما مر قبل قليل.

فانظر، إذن، كيف هيأت العوامل الجغرافية الملائمة التربة في [البلد الأمين] و[البلد الطيب] ، و"البقاع المقدسة"، لاستقبال الأنبياء وحملة الوحي والرسالات، وتنشئتهم إلى أن يُؤمروا بأن يصدحوا بما يُؤمرون، ومد أنسابهم وذرياتهم بـ "المشروعية" الدينية لتولي شؤون الدين والدولة عند الضرورة، لأنهم فوق العصبيات، وما ترتب عن ذلك من ظواهر سياسية واجتماعية، كانتحال النسب الشريف والمهدوية من قبل العديد من الناس. وشبيها بهذا أيضا "أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء"[113]، وما أكثر هؤلاء في تاريخنا الإسلامي، – وفي مغربنا بالذات – الذين قال فيهم ابن خلدون: "فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجوْر

(109) انظر: محمد استيتو، الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، 1988، صص. 425 – 443..

(110) محمد حجي، م. س.، 1 : 236.

(111) انظر ترجمة الفقيه عبد الله الورياغلي عند: محمد ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. تحقيق: محمد حجي، ط. 2، الرباط، 1977، ص. 31.

(112) المقدمة، م. س.، الباب الثالث، الفصل السادس، ص. 150.

(113) م. ن.، الباب الثالث، الفصل السادس، ص. 148.

من الأمراء، داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرّضون أنفسهم، في ذلك، للمهالك، وأكثرُهم يهلَكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين...»[114]

(114) المكان نفسه.